

الثقافة والعادات وأثرهما في توضيح الصورة الشعرية (دراسة بلاغية تحليلية)

Culture, Customs and its effects on Poetics signification (An Analytical Rhetorical Study)

Dr. Habib ullah Khan

Assistant Professor at Faculty of Arabic, & Coordinator of Center of Teaching of
Arabic Language for Non Arabs (CTAL) in International Islamic University
Islamabad Pakistan

Syed Abdul Salam Bacha

Visiting Assistant Professor at Faculty of Arabic in International Islamic
University Islamabad Pakistan.



Scan for Online
Version

Abstract

No doubt that Nazm always holds meanings, not only based on lexical ground or social phenomenon, but also mostly based on cultural background and historical family.

Arabic rhetoric has control over the meanings of Nazm of Holy Qur'ān. They are based on probably different aspects of culture, history, psychology and many other traits which are having good role in the extraction of original and accurate meaning or meaning of meaning.

Arabic metonymy is having a lot of this shade of meaning. To reach an acquired meaning from metonymy, it is necessary to understand the doctrine and dogma it refers to.

Keywords: Reality, Creed, Habits, Nazm, Metonymy

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

لا ريب أن كثيراً من النظم لا يترتب على الواقع، بل يتوقف على الاعتقاد فإذا ذهبَت به إلى مراعاة الواقع خرجت عن المقصود من كلامهم، ولا تحلل كلامهم تحليلاً صحيحاً، وذلك أمر مركوز في الطباع عند أولى الألباب.

ذلك أن أساليب البيان تصاغ على وفق ما يعتقدُه الناس لا على ما يقرره الواقع ويثبتُه العلم، كما في قوله - تعالى - : "وبلغت القلوبُ الحناجرَ"⁽¹⁾ فالكناية في هذه الآية الكريمة مبينة على ما كان يعتقدُه القوم من أن الخائف يتقلص قلبه ويجتمع ويلتقص بالحنجرة، وتنتفخ رثته من شدة ما يجد، وإذا انتفخت الرثة ارتفع القلب بارتفاعها، ولهذا



الثقافة والعادات وأثرهما في توضيح الصورة الشعرية (دراسة بلاغية تحليلية)

يقال للجبان: انتفخ سَحْرُهُ⁽²⁾، أي: انتفخت رثته، فبلوغ القلوب الحناجر كناية عن الخوف. فهمها يتوقف على إطلاع ما يعتقدونه؛ لأن الواقع والطب يقرر أن القلب لا يتحرك من مكانه، فضلاً عن أنه يتصاعد حتى يبلغ الحنجرة.

ولهذا فإذا لم يكن عندك بصر باعتقادهم في قولهم لا تفهم كلامهم فهما صحيحا، بل ربما تحمله على غير وجهه.

تدبر قول عروة بن الورد: [من الطويل]

"فإني وإن عَشَرْتُ من خشية الرّدى
مُهاق حمارٍ إنني لجزوع"⁽³⁾

فإنك إذا لم تكن مطلعاً على العادة والاعتقاد الذي يتوقف عليه قولهم فلا تفهم تشبيه الشاعر، بل ربما عبته، ولكنتك إذا اطّلت على العادة والاعتقاد الذي يترتب عليه قولهم فتفهم فهما صحيحا، ألا وهو أن الرجل في الجاهلية إذا كان يدخل أرضاً مرثبة فيضع يده على قفاه ومُحَقَّ عشر مرات مُهاق الحمير حتى ينجو من وبائها. فكر في وجه الشبه وحسنه، وكيف صور الشاعر حال نفسه وقلق فؤاده أتمّ تصويراً وأبلغه. هذا باب عظيم وشامل إذا تدبرته وجدت فيه عجباً، فقد استوعب أبواب البلاغة، لا سيما فيما يتصل بدراسة الصورة البيانية، حيث تجد معظمها مبنية على الاعتقاد والعادة.

فتجد الخبر مراداً به الرجاء والتفاؤل مبنياً على اعتقادهم في قول الصمة بن عبد الله القشيري: [من الطويل]

"تَلَفْتُ نحو الحَيِّ حتى وَجَدْتُني.
وَجَعْتُ من الإصغاء لَيْتاً. وأخذعاً"⁽⁴⁾

لم يرد الشاعر في هذا البيت مجرد الخبر، بل أراد إظهار التفاؤل والرجاء بالرجوع إلى ديار محبوبته، وأصل ذلك عندهم أنهم يعتقدون أن من ذهب من بلد فنظر وراءه رجع إلى ذلك البلد. ويدل عليه قول الخالغ: [من الطويل]

"عِيل صبري بالتعليبية لَمَّا
كلما سارت المطايا بنا ميلا
طال ليلى ومَلَّني قرناتي
تَنَفَّسْتُ والتفتُّ ورائي"⁽⁵⁾

نظر الشاعر وراءه لكي يُقضى له الذهاب، لكونه كان عاشقاً.

وقد تجد التهديد في الحروب مبنياً على عاداتهم، انظر إلى قول زهير بن أبي سلمى:

"ومن يعص أطرافَ الرِّجاجِ فإنه يطيع العوالي رَكِبَتْ كلَّ هَدَمٍ"⁽⁶⁾

التهديد والتحذير من نظم الشعر واضح جلي، وهذا مبني على عاداتهم التي أشار إليها الروزي: "إذا التقت فتتان من العرب سدّدت كل واحدة منهما زجاج الرماح نحو صاحبها، وسعى الساعون في الصلح، فإن أبنا إلا التماذي في القتال قلبت كل واحدة منها الرماح واقتتلتا بالأسنة"⁽⁷⁾.

وقد يكون الوصف للإثارة والتهيج مبنياً على ما يعتقدونه، كما في قول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب:

[من الطويل]

"ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكرًا
وأترك في بيت بصعده مُظلم"⁽⁸⁾

فقد وصفت قبر أخيها بأنه مظلم ليكون أدعى إلى الأخذ بثأره، وأولى بأن تحرك فيه الحمية والأنفة عن أخذ

الدية، وهذا مبني على ما يعتقدونه من أن: "المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره، فإن أهدر دمه أو أخذت ديته ظل قبره مظلماً" (9).

وقد تكون بلاغة القصر موقوفة على بيان عاداتهم، فلا يمكن لأحد أن يعرف أن القصر في قول كبشة: [من

الطويل]

"ولا تَرِدُوا إِلَّا فُضُولَ نَسَائِكُمْ إِذَا ارْتَمَلْتُمْ أَعْقَابَهُنَّ مِنَ الدَّمِ" (10)

للسخرية والتهكم، أو الدعاء إلا إذا اطلع على عاداتهم ألا وهي "إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال ثم العضايرط والرعاة، ثم النساء، إذا ذهب كل جماعة عنها، فكن يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن أمنات غير منزعجات ومستعجلات، فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية في الذل".

وبهذا وضع معنى القصر بالنفي والاستثناء ألا وهو السخرية والتهكم؛ لأن تلك الحالة مما ينكرها الرجال ولا يقبلونها، وعليه يتأتى التهكم بهم ومن ثم الحض والحث على أخذ الثأر وعدم قبول الدية.

ومن أعجب ذلك أن فهم الصورة البيانية كما يتوقف على ما تعتقده العرب، وما تجري به عاداتها، كذلك يتوقف على أسطورة من الأساطير ألا ترى كيف بنى متمم بن نويرة صورته في رثاء أخيه بالحمام في دعائه هديلاً، والهديل - (صوت الحمام) - الذي يذكر في سياق إثارة الأحران مبني على أسطورة خلاصتها أن فرخا كان في عهد نوح - عليه السلام - مات ضيعة وعطشاً فكل حمامة تبكيه .

انظر إلى قول المتمم: [من الطويل]

"إِذَا رَفَاتُ عَيْنَايَ ذَكَرَنِي بِهِ حَمَامٌ تَنَادِي فِي الْغُصُونِ وَقُوعٌ" (11)

"دَعُونَ هَدِيلاً فَاحْتَرَنْتُ لِمَالِكٍ وَفِي الصَّدْرِ مِنْ وَجَدٍ عَلَيْهِ جُرُوعٌ" (12)

فقوله: دعون هديلاً إشارة إلى هذه القصة، وهي ذات مغزى نفسى كبير في سياق رثائه، فالحمام يدعو هديلاً مغيباً لا يجيب، كذلك متمم.

كذلك تجد الأمر في رثاء الخنساء في الدلالة على دوام بكائها على أخيها؛ لأن بكاء الهديل ودعائه دائم

ومستمر: [من الكامل]

"فَلَأُبْكِيَنَّكَ مَا سَمِعْتُ حَمَامَةً تَدْعُو هَدِيلاً فِي فُرُوعِ الْفَرْقَدِ" (13)

وانظر كيف ذكرها سجع الحمامة أخاها فأثار أحزانها: [من الطويل]

"تَذَكَّرْتُ صَخْرًا إِذَا تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ هَتُوفًا عَلَى غُصْنٍ مِنْ

الْأَيْكِ تَسْجَعُ" (14)

"فَظَلْتُ لَهَا أَبْكَى بِدَمْعِ حَزِينَةٍ وَقَلْبِي مِمَّا ذَكَّرْتَنِي

مُوجَّعٌ

تَذَكَّرْتَنِي صَخْرًا وَقَدْ حَالَ دُونَهُ صَفِيحٌ وَأَحْجَازٌ وَبِيْدَاءٌ

بِأَقْصَعُ" (15)

فانظر كيف بنوا كلامهم في التوجع على ذلك الاعتقاد بأن الحمام يبكي ذلك الهديل الذي مات ضيعة

وعطشاً. لذلك يذكرهم صوته بمفقودهم مما يثير كوامن الذكرى والألم لديهم. ولهذا تجده عندهم في اليأس من الجواب، وعدم السلو عن الدعاء، فهو ماض إلى قدره المحتوم.

تدبر قول كعب بن سعد الغنوي: [من الطويل]

"فإنك والموت الذي ترهيبينه عـلـي، وما عذالة
بـعـفـول
كداعي هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء
هديل" (16).

فالعرب تعتقد في بعض الحيوانات صفات تجعلها مؤثرة في المشبه به، فهم يعتقدون في الغول اتصافه بالخفة والسرعة، ولذلك يشبهون بها الخيل، لما فيها من النشاط.

انظر إلى قول عمرو بن قميئة: [من الطويل]

"أليسوا الفوارس يوم الغارا ت واخيل بالقوم مثل السعالي" (17)

والسعالي جمع سعللة أو السعل، وهي أنثى الغول، فالغرض من التشبيه بيان نشاط الخيل وخفتها، وهم يعتقدون ذلك في السعالي.

وهذا الوجه في إثارة المشبه به لاعتقادهم فيه معنى لا يوجد في غيره قد توارد عليه الشعراء، انظر إلى قول

عنتره: [من الوافر]

"أتونا في الظلام على جياد مضمرة الخواصر كالسعالي" (18)

وقول عبيد بن الأبرص: [من الرمل]

"نحن قُدتنا من أهاضيب الملا ال خيل في الإرسال مثل السعالي" (19)

كذلك تعتقد العرب أن الشجاع من أحببت الحيات وأجرئها، ولذلك يشبهون به البطل الشجاع إذا صمّم

بعد تفكير .

يقول المتلمس: [من الطويل]

"فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساعاً لنابيه الشجاع لصمما" (20)

وقد يلحقون صفة المشبه به عقب ذكر المشبه بناء على ما يعتقدون ويعتادونه ألا ترى إلى قول النابغة يصف

سهده من وعيد أبي قابوس في قوله: [من الطويل]

"فبت كأني ساورتي ضبيلة من الرقش في أنيابها السهم نافع

يسهّد في ليل التمام سلیمها حلّى النساء في يديه قعافع" (21).

فهذا مبني على اعتقادهم أن الملدوغ إذا نام سرى فيه السم، ولذا كان من عادتهم أن يجعلوا في يديه حلّى

النساء حتى ينتبه فلا ينام، ولذلك تقول العرب للملدوغ: "سهّدوه لا يسر فيه السم".

كذلك تعتقد العرب أن (الأخدر) (22) فحل من الخيل أفلت فضرب في الحُمُر .

وقيل بل كان لسيلمان بن داود - عليه السلام - ولذلك يشبهون به البعير في القوة والنشاط، يقول عمرو

بن قميئة: [من الطويل]

"كأني حين أزجره بصوتي زجرتُ به مُدلاً أُخدرياً" (23) .

ويقول زهير بن أبي سلمى مشبها ناقته بالأخدريّ في قوتها وسرعتها: [من الكامل]

"دعها وسلّ الهَمَّ عنك بِجَسْرَةٍ تنجو نِجاء الأُخدريّ المُفرد" (24)

كذلك يعتقدون أن ماء المطر أصفى المياه عندهم؛ لأنه لم تكدره الأرض ولم يختلط بغيره، فلذلك يجعلونه مثلاً للصفاء والنقاء والطهارة، فيكون مشبهاً به؛ لأن المقرر - عندهم - أن المشبه به يكون أكمل وأتم وأقوى من المشبه في وجه الشبه، وذلك في قول السَّمَوَّل بن عادياء اليهودي أو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: [من الطويل]

"فحَن كِماء المِزن ما في نِصابنا كِهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بِخِيل" (25) .

فتشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر .

كذلك من عادتهم أن المرأة الحرة لا تسفر عن وجهها صوتاً لها وحفظاً، وإنما تكشف الإمام وجوههم لعدم صيانتهم، ولكن في وقت الشدة والجذاب قد يفعلن فعل الإمام حتى يأمرن السِّبَاء وهذا ما يبني عليه التشبيه، ألا ترى إلى قول عمرو بن معد يكرب: [من الكامل]

"وَبَدَت لَمِيسُ كَأُها بَدْرُ السِماءِ إذا تَبَدَّى" (26)

فتشبيها بالبدر في حال ظهوره؛ لأنها قد كشفت نقابها وأرسلته تشبيها بالإمام حتى تأمرن السِّبَاء، وفي

طريقته يقول سيرة بن عمرو القعسي: [من الطويل]

"ونسوتكم في الرُّوعِ بادِ وجوهُها يُحَلِّنُ إِماءً وإِماءً حِرائِرُ" (27) .

فتشبيه نسوتهم بالإمام في وقت الرُّوع والخوف، إنما جاء من عادتهم في كشف الإمام وجوهها فلدهشتهم أو خوفهم من السبَاء تشبهن بهن.

وإنما قال ذلك؛ لأنهم كانوا يقصدون بسبي من يسبون من النساء إلحاق العارات، لا اغتنام الغذاء والأموال،

ولما كان الشأن هكذا فالمرأة الحرة كانت في ذلك الوقت تشبه بالأمة لكي يزهدها في سبها.

وهكذا يختار المشبه به ووصفه تبعاً لاعتقادهم وعادتهم؛ لأن التشبيه كشف عما في النفس.

وقد يكون وصف المشبه مبنياً على اعتقادهم، فمن ذلك أنهم كانوا يتوهمون صوت الرمال إذا هبت بما الرياح

عزيف الجن، ولهذا يأتي وصفاً للمشبه حتى يتحقق التشبيه، وذلك كما في قول المنقّب العبدي: [من السريع]

"في لا حِبِّ تَعزِفُ جِئانُهُ مُنْفَهِقِ القَفْرَةِ كالبُرْجِدِ" (28) .

وهكذا الأمر في الاستعارة؛ لأنها كما هو مقرر عند البلاغيين مبنية على التشبيه وقائمة عليه، ولذا فهي تبني

على ما تعتقده العرب وتجري به عاداتها.

فمن المقرر لديك أن الحبل قد يستعار للعهد والذمة والأمان وعلى ذلك جرى استعمال القرآن والنظم العالي

في كلام العرب. ألا ترى إلى قوله - تعالى -

"صُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَئِنَّ ما لَئِقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبِأَنَّهُمْ يَعْصِ بِرَأْيِهِمْ مِنْ اللَّهِ" (29)

قد استعير الحبل للعهد والذمة على طريق الاستعارة التصريحية ومثل ذلك كثير .

وقد تكون الاستعارة مبنية على عادة جرت عندهم؛ لأنهم يصفون ما يرون، فمن ذلك استعارة الإجرار وهو ربط اللسان للسكوت في قول عمرو بن معد يكرب: [من الطويل]

"ولولاً قومي انطقتني رماحهم
نطقت ولكن الرماح أجرت" (30)

وقد تكون طرفة الاستعارة وجدتها في بنائها على اعتقادهم وهذا ما تجده في قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: [من الطويل]

"وما مات منا سيد حنف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل" (31)

حيث استعار (مات حنف أنفه) للموت على الفراش، على ما كانوا يعتقدونه من أن الروح عند الموت على الفراش تخرج من الأنف عند النزح، لا دفعة واحدة، كما هي عند القتل في المعركة فإنها تخرج من موضع الجرح. وأصل هذا التعبير قوله - ﷺ - : "مات حنف أنفه" وتجد طرفة تلك الصورة في تخصيص الأنف بذلك؛ إذ إن الميت على فراشه من غير أن يعجله القتل إنما يتنفس شيئاً فشيئاً حتى ينفسي ذماؤه (32)، وتفنى حوباؤه (33). ولهذا فإنك لا تجدهم يقولون ذلك في سائر الميتات التي فيها الفجأة والبغته حتى تكون الميتة ذات مهلة، وتكون النفس غير معجلة، فلا يستعمل ذلك في الميتة بالغرق والهدم، وجميع فجأة الموت، وإنما يستعمل ذلك في العلة المطاولة، والميتة المطاولة (34).

وهكذا نجد دلالة التركيب على كراهيتهم لتلك الميتة، لما فيها من تطاول العلة مما يبرم به ويبرم بنفسه.

ألا ترى كيف كره صخر طول علته وما نتج عنها من ملال زوجه سآمتها له، فقد ذكر في التاريخ أن صخرًا مرض قريباً من حول وتعب أهله من مرضه، فبينما هو ذات يوم إذ أقبل عائد يعود وامرأته على باب الخيباء (35)، فقال لها: كيف أصبح صخر الغداة وكيف بات البارحة؟ فقالت: بشر حال، لا حي فيرجى ولا ميت فينعي، ولقد لقينا منه الأمرين، فسمعها صخر، فأنشد يقول: [من الطويل]

"أرى أم صخر لا تمل عيادي
وملت سليمي مضجعي ومكاني
وللموت خير من حياة كأنها
محلّة يعسوب برأس سنان" (36)

وكانت تسأل أمه: كيف أصبح صخر؟ فتقول: أرجو له العافية - إن شاء الله - .

ويرى بعضهم أن دلالة التراكيب والتعبير على موت الأنفة والكبرياء أقوى، فلم يدفع الموت أنفه في القوم بل أدله وأرغمه، فكان به هلاكه .

ووجه ذلك أن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا نزال أمر يؤرخ به الموت في الألسنة فما كانوا يأنفون له، والحنف هو الهلاك فكان صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه (37).

ولكن بناء النظم وتفسيره على اعتقادهم يبيى عما هم عليه من بغض الموت على الفراش وكرههم له وأن القتل في المعركة أهون عليهم من تلك الحالة؛ لأن الروح حينئذ تخرج دفعة واحدة، وهذا أشرف كما رأيت . ومن أल्प مواقع بناء النظم على الاعتقاد والعادة ما تجده في الكناية؛ ذلك لأنها في الواقع معنى المعنى،

فالاعتقاد ليس مراداً في أصل وضعه، ولكنه يستدل به على أمر آخر، فإذا لم تتبين العادة أو الاعتقاد الذي بنيت عليه الكناية فلن تجد للكناية مذاقها وحلاوتها.

انظر إلى قول المثقب العبدى في المدح بشرف النسب وكرم الأصل فاستدل على ذلك بما كانوا يفعلونه عند إصابة أحدهم بداء الكلب فإنهم يسقونه دم رجل كريم شريف فيشفى. يقول المثقب العبدى: [من الرمل]

"بأجرى الدَّم مُرُّ لَحْمِهِ يُرَى الكَلْبُ إِذَا عَضَّ وَهَرَّ"⁽³⁸⁾.

فالعادة هنا ما كانت تفعله العرب في الجاهلية، فاستدل بذلك على كرم أصله وشرف نسبه، وهذه طريقة شائعة مستفيضة في الشعر، انظر إلى قول التلمس الضبعي: [من الطويل]

"من الدارميين الذين دماؤهم شفاءً من الداء المَجَنَّةِ والخَبَلِ"⁽³⁹⁾.

وكذلك فعل أبو البرج القاسم بن حنبل المري: [من الوافر]

"بُناةٌ مكارِمٍ وأُساءةٌ كَلِمٍ دماؤهم من الكلب الشفاء"⁽⁴⁰⁾.

وقد تختلف العادة والاعتقاد في التعبير عن كرم الأصل وشرف النسب فكانوا يعتقدون أن المرأة المقاتلات - وهي التي لا يعيش لها ولد - إذا وطأت رجلاً شريفاً مقتولاً عاش أولادها. فاستشهد الشاعر بصورة رائعة لكناية عن كرم أصله وشرف نسبه. تدبر قول الشاعر بشر بن أبي خازم: [من الطويل]

"تَظَلُّ مَقالِيتُ النِّساءِ يَطْأَنَهُ يَقْلَنُ أَلَا يَلْقَى عَلى المِراءِ المِئزِرَ"⁽⁴¹⁾.

فانظر إلى العجلة التي وطئ بها مقاليت النساء على هذا المقتول من دون أن يلقي عليه مئزر؛ لأن تلك فرصة يهتبلنها؛ لأنه في كرم الأصل معروف ومشهور، فانظر كيف ترى النظم من غير أن تدرك تلك العادة والاعتقاد؟ كذلك من الاعتقادات التي بنوا عليها الكناية ما هو مركز عندهم في حال ما إذا قتل لهم قتيلاً، فكانوا يكونون عن الأخذ بثأره بالبكاء عليه. انظر إلى قول ربيعة بن زياد العبسي في رثاء مالك بن زهير العبسي: [من الكامل]

"من كان مسروراً بمقتل مالك فليأتِ ساحتنا بوجه النهار

يجد النساء حواسراً يندينه يلطنن أوجههن بالأسحار"⁽⁴²⁾.

فقد استدل على الأخذ بثأره وإراقة الدماء به بتلك الصورة من بكاء النساء عليه. وكذلك ترى الكناية عن إدراك الثأر بجل ما كان محرماً عليهم مبنية على عادتهم في حرمة الخمر وما يجري مكافئ في ذهاب النفس به والميل إليه إذا قتل لهم أحد حتى يدركوا ثأره، أو حزمهم أمر عظيم الشأن يحتاجون فيه إلى مناهضة ومزاولة.

فربما كانوا يجرمون على أنفسهم تنظيف الجسم، وقص الشعر وما شاكله، وذلك على حسب ميلان الطباع وإيثار إيقاف النفس عن الشيء الذي لا مخرج له عندها.

والغرض في جميع هذا حبس النفس عن المقصود وتذكيرها بالمفقود، لئلا تتناساه أو تتشاغل عنه.

ألا ترى كيف كنى تأبط شراً أو ابن اخته على إدراك ثأره بقوله: [من المديد]

"حَلَّتِ الحُمُرُ وكانت حراماً وبِأَيِّ ما أَلَمَّتْ تَحِلُّ" (43) .

"فاسقينها يا سوادَ بن عمرو إنَّ جِسمي بعد خالي لَحَلُّ" (44) .

وكذلك تجد امرئ القيس سالكاً لتلك الطريقة، فيقول بعد أن أوقع بواثره: [من السريع]

"حَلَّتْ لِي الحُمُرُ وكنْتُ إمراً عن شربها في شُغْلِ شاغِلٍ

فاليوم أُسقى غير مُسْتَحَقِّبٍ إثمًا من الله ولا واغِلٍ" (45) .

وكذلك ترى المرقش الأكبر وقد آلى ألا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره حين قتل المهلهل ثعلبة بن عوف بن مالك بن ضبيعة ابن عم المرقش الأكبر، فلما طلب دمه وظفر برجل من بني تغلب يدعى عمرو بن عوف قال: [من المتقارب]

"أَباتُ بِتَعَلْبَةَ بن الخُشامِ عمرو بن عوفٍ فزاح الوهل

دما بدمٍ وتُعَفَى الكُلومُ ولا ينفَعُ الأولين المَهَلُ" (46) .

فانظر كيف دل بقوله (فزاح الوهل) على ما كان قد آلى عليه وعزم من ترك غسل رأسه حتى يدرك ثأره.

وعلى العكس من ذلك تجدهم يكونون عن عدم إدراك الثأر بما كانوا يعتقدون من خروج طائر من رأسه

كالبومة يصيح: اسقوني اسقوني، حتى يقتل قاتله، فيكف الطائر عن الصياح يقول المثقب العبدى: [من الطويل]

"أَمْضِي بِها الأهلُ في كلِّ قَفْرَةٍ ينادي صداها آخر الليل بومها" (47) .

ولعلك إذا تتبعت الكناية عن صفة وجدتها في أكثرها مبنية على ما يعتقد العرب ويعتادونه في حياتهم،

وذلك لأن الكناية في جوهرها انتقال من الواقع المحس إلى معنى آخر .

وهاك دلائل ذلك بإيجاز .

فهم يكونون عن الشجاعة والإقدام في وقت الشدة بالانتساب في ذلك الوقت، وذلك كما في قول عمرو بن

قمية: [من الطويل]

"على أني قد ادعى بأبيهم إذ عمت الدعوى وثاب صريحها" (48)

وأصل ذلك عندهم أن الطاعن يقول للمطعون: خذها وأنا ابن فلان أو أنا الفلاني، والغرض من ذلك أن

يدعى لقومه ليعرف .

كذلك من الكناية عن السيادة بحمرة القباب، كما في قول المثقب العبدى: [من الرمل]

"قد عَلَّتْ من فوقها أَمَاطُها وعلى الأحداج رَقَمٌ كالشَّقِرِ" (49) .

وهذا ما تجده في قول عبيد الأبرص: [من الكامل]

"أهلَ القِبابِ الحُمُرِ وال نَعَمِ المُوَبَّلِ والمُدَامَةِ" (50) .

وأصل ذلك أن من عادتهم أن يغطوا الهوادج بالصفوف ذي اللون الأحمر، ولعل ذلك - عندي - للدلالة

على مكانها لتعرف فتقصد، وهذا من شأن السادة وعادتهم. وربما تأتي الكناية في النظم المتقارب عن الشيء وضده،

تبعاً لاختلاف اعتقادهم.

فالإقامة في الديار قد تكون كناية من الهوان، وقد تكون عن الفخر والعزة، على اختلاف معتقدهم، فقد يكون الثبات والصبر على الإقامة في دار الحفاظ مدعاة للفخر والعزة، والانتقال جالب للعار؛ لأن من عادتهم الإقامة في الأماكن المخوفة، والثغور المهذمة، ألا ترى قول الحادرة الذبياني في عنيته: [من الكامل]

"ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا
زمناً ويظعنُ غيرنا للأمرع" (51).

وهذا مضاد للكناية بالإقامة فيها عن الهوان والمذلة، نظراً لما يعتقدونه من عدم الإقامة في دار الهوان، وجعل خرابه وقاية للنفس، الا ترى قول سعد بن ناشب: [من الطويل]

"وأذهل عن داري وأجعل هدمها
لعرضي من باقي المدمة حاجباً" (52).

فكيف بك إذا لم تدرك اعتقادهم وعاداتهم أن تقول الشيء على الوصف ضده؟ ومن أبين شيء على هذا أن طريقة الفتاك اتباع الرأي الأول وعدم النظر في العواقب، ولهذا تكون كناية عن الشجاعة والجرأة عندهم، انظر إلى قول سعد بن ناشب: [من الطويل]

"إذا هم لم تُردع عزيمة همته
ولم يأت ما يأتي من الأمر هائباً" (53).

ومثله قول المقرب التنوخي: [من الطويل]

"جسور لا يروغ عند هم
ولا يثنى عزيمته إتقاء" (54).

وفي عكسه طريقة من يتدبر العواقب، فيرجع عن الرأي إلى غيره، ويترك الشيء إلى الشيء لما يرجوه من حسن المآب، فتكنى بها عن الجبن عندهم .

وقد يكون بيان الوقت الذي يغار فيه مبنياً على عاداتهم، ودالاً على الفتك والعلم بالحرب عن طريق الكناية، انظر إلى قول دريد بن الصمة: [من الوافر]

"وغارة بين اليوم والليل فلتة
تداركتها ركضاً بسيد عمرد" (55).

تجد الكناية فيه مبنية على أنه كان للعرب في الجاهلية ساعة يقال لها الفلته يغيرون فيها، وهي آخر ساعة من آخر يوم من أيام جمادى الآخرة يغيرون تلك الساعة وإن كان هلال رجب قد طلع من آخر جمادى الآخرة ما لم تغرب الشمس، فانظر كيف دلّ بتلك العادة على علمه بوقت إرسال الغارة وموردها .

النتائج:

من خلال هذا وصلت إلى عدة نتائج، أهمها:

- 1- كثير من النصوص لا تكون مبنية على الواقع، بل على الاعتقاد فإذا ذهبت به إلى مراعاة الواقع خرجت عن المقصود من النظم، ولم تر وجهاً صحيحاً للتحليل.
- 2- العرب تعتقد في بعض الحيوانات صفات تجعلها مؤثرة في المشبه به، فهم يعتقدون في الغول اتصافه بالخفة والسرعة، ولذلك يشبهون بها الخيل، لما فيها من النشاط.
- 3- مات حنف أنه كناية عن الموت على الفراش؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن الروح عند الموت على الفراش تخرج من الأنف، لا دفعة واحدة، كما هي عند القتل في المعركة فإنها تخرج من موضع الجرح.

- 4- من أطف مواقع بناء النظم على الاعتقاد والعادة ما يجد القارئ في الكناية؛ ذلك لأنها في الواقع معنى المعنى، فالاعتقاد ليس مراداً في أصل وضعه، ولكنه يستدل به على أمر آخر، فإذا لم تبين العادة والاعتقاد الذي بنيت عليه الكناية فلن يجد للكناية مذاقها وحلاوتها.
- 5- إذا تتبعنا الكناية عن صفة وجدناها في أكثرها مبنية على ما يعتقده العرب ويعتادونه في حياتهم، وذلك لأن الكناية في جوهرها انتقال من الواقع المحس إلى معنى آخر.
- 6- ربما تأتي الكناية في النظم المتقارب عن الشيء وضده، تبعاً لاختلاف اعتقادهم. فالإقامة في الديار قد تكون كناية عن الهوان، وقد تكون عن الفخر والعزة والشرف.
- 7- كان العرب يكتون عن الأخذ بنأر المقتول بالبكاء عليه، وعن إدراك النار محل ما كان محرماً عليهم مبنية على عاداتهم في تحريم الخمر وما يجري مجراها في ولوع النفس به والميل إليه.
- 8- من عادة العرب أن المرأة الحرة لا تسفر عن وجهها صوتاً لها وحفظاً، وإنما تكشف الإماء وجوههنّ لعدم صيانتهم، ولكن في وقت الشدة والجداب قد يفعلن فعل الإماء حتى يأمن السبأ.
- 9- العرب لشجاعتهم يبعضون الموت على الفراش ويكرهونه، والقتل في المعركة أهون عليهم من تلك الحالة؛ لأن الروح حينئذ تخرج دفعة واحدة.
- 10- طريقة الفئّاك اتباع الرأي الأول وعدم النظر في العواقب، كانت كناية عن الشجاعة عند العرب، وطريقة من يتدبر العواقب، فيرجع عن الرأي إلى غيره، كناية عن الجبن عندهم..

هذا وبالله التوفيق



This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الهوامش (References)

- ¹ . سورة الأحزاب، الآية: 10 .
- ² . الجاحظ، أبو عثمان عمرو (ت 255هـ)، البرصان والعرجان والعميان والحولان، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ج 1، ص 160 .
- ³ . الردي: الموت والهلاك .
- عروة بن الورد، ديوان، أمير الصعاليك، دراسة شرح وتحقيق: أسماء أبوبكر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418 هـ، ص 80 .

- ⁴ - الإصغاء: الالتفات، لبت: صفحة العنق. أخدعا: عرق المحجمتين . والبيت كناية عن طول التلفت وشدة التعلق، وفيه إشارة إلى أن التعلق بالمكان لمكان الأحبة القاطنين فيه من قلبه ونفسه. معنى البيت: أكثرت الالتفات جهة الحي حتى شعرت بالألم في لبيتي وأخدعي. صمة بن عبد الله القشيري، ديوان، تحقيق: الدكتور عبد العزيز مُجَد الفيصل، النادي الأدبي، المملكة العربية السعودية، الرياض، عام 1401هـ، ص 95 . أمالي أبو علي إسماعيل القاسم القالي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج 1، ص 191 .
- ⁵ - عيل: نَفَذ. المطايا: الدابة التي تُركب . علي بن أبي الفرج بن الحسن صدر الدين، الحماسة البصرية، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، ج 2، ص 401 .
- ⁶ - الرَّجَاج: جمع رُجْ، وهو الحديدية في أسفل الرمح. والعوالي: أعالي القناة مما يلي السنان، واللهدم: السنان القاطع. يعني: من لم يُطع إذا أخذ بأطراف الرَّجَاج - كناية عن الهوادة - فإنه يطبع إذا أخذ بأسنة الرَّمَاح - كناية عن الشدة - ويريد أن من لم يُصلحه اللينُ أصلحته الشدة .
- ⁷ - الزوزني، الحسين بن أحمد أبو عبد الله، شرح المعلقات السبع، الدار العالمية، الطبعة الأولى، عام 1993م، ص 88 .
- ⁸ - الأفال جمع أفيل وهو من أولاد الإبل ما بلغ سبعة أشهر، والأبكر جمع بكر وهو ولد الناقة، وإنما ذكر الأفال والأبكر، والدية لا تكون منهما تحقيراً لشأن الدية. صعدة: مخلاف من مخاليف اليمن أي المديرية والمحافظة .
- ⁹ - المرزوقي، أحمد بن مُجَد بن الحسن أبو علي، شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، عام 2003م، ص 217 و 218 .
- ¹⁰ . شرح ديوان الحماسة، ص 160 .
- ¹¹ - رفات: جمعت فيما بينهما، احتزنت: وقفن ولزمت مالكا ولم أفارقه، وقوع: قائم أو جالس .
- ¹² . المفضل بن مُجَد سالم الصبي (ت 160 هـ)، المفضليات، تحقيق: أحمد محمود شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، الطبعة السادسة، ج 1، ص 101 .
- ¹³ . ديوان الخنساء، شرح معانيه ومفرداته: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، عام 1425هـ، ص 38 .
- ¹⁴ - الأيك: الشجر الكثير المتلف، صفيح: وجه كل شيء عريض أو قطع رقائق الحديد تستعمل في الصناعة وفي أغراض مختلفة. بيداء صحراء. بلقع، الخالي من كل شيء .
- ¹⁵ . ديوان الخنساء، ص 80 .
- ¹⁶ - عدالة: اللؤامة، الكثيرة اللوم. داعي الهديل: الحمام الذي يديم الهدير "يقولون إنه لا يزال يبكي صغيره الذي فقده أيام نوح - عليه السلام - فكل حمامة تبكيه" .
- أي فإنك في دعائك وأنا مع قدرتي كمثل هذا الحمام الذي لا يستجيب دعاءه، يريد أن المقدر لا يمكن إضعافه .
- الأصمعي ابو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي (ت 216 هـ)، الأصمعيات، تحقيق: أحمد مُجَد شاكر و عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، عام 1993، ص 74 .
- ¹⁷ . ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: إبراهيم خليل المطية، دار صادر، بيروت، ص 126 .

18. ديوان عنتر بن شداد، تحقيق: أمين سعيد، المطبعة العربية بمصر، الطبعة الأولى، (ب.ت)، ص 156 .
19. ديوان عبید بن الأبرص، شرح: أشرف المدعورة، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، عام 1994م، ص 122 .
- 20- أطرق: ضرب ومدد، النابان: السن بجانب الرباعية، وللإنسان نابان في كلِّ فَلَِّ .
- جرير بن عبد العزى الضبيعي، ديوان المتلمس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1998م، ص 34 .
- 21- ساورتني: لدغتنني، ضئيلة: أفعى دقيقة الجسم، الرقش: الحيات المنطقه بسواد و بياض، يستهد: يمنع من النوم. سليمانها: الملدوغ، قعاقع: أصوات.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: د. حناء نصر الحتمي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1411هـ، ص 122 .
- 22- الأخدر: نوع من الخمر الوحشية . (ديوان عمرو بن القميئة، ص 146) .
- 23- يمشي على الصراط مدلاً: منبسطاً لا خوف عليه. جسة: الناقة البسيطة الطويلة.
- 24- الأخدرئ: نسبة إلى أخدر، وهو فرس ضرب في الحمير فنسله معروف .
- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: الأستاذ حسن علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، عام 1408هـ، ص 45 .
- 25- كهام: جبان. والبيت الثاني لهذا الشعر:
- وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
- شرح ديوان الحماسة، ص 90 .
- 26- لميس: المرأة اللينة الملمس .
- ديوان الحماسة، ج 2، ص 133 .
- 27- الروع: الحرب، يُخلن إماء: يُحسبن إماء. وكانت الحرة في ذلك الوقت تتشبه بالأمة خوفاً على نفسها من السبي. والإماء حرائر: معناه أنكم تفرقتن حتى تركتم إماءكم فيما تركتم فصرن بمنزلة الحرائر .
- ديوان الحماسة، ج 2، ص 160 .
- 28- لاحب: الطريق الواضح. العزف: يتقن إحداث أصوات موسيقية على العود. كأن عزف الرياح شديداً: أصواتها. منفهق: متسع وممتد. القفرة: أرض لا بشر فيها ولا ماء ولا عشب. البرجُجْدُ: ثوب مُحَطَّطٌ غليظ .
- ديوان المثقب العبدى، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار النشر معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، الطبعة الأولى، عام 1971م، ص 160 .
- 29- سورة آل عمران، الآية: 112 .
- 30- يقول الشاعر لو أن قومه انتصروا في هذه الحرب لكان ذلك سبباً لنطق الشعراء، ومديجهم لقوتهم ونصرهم، ولكنهم تخاذلوا فانهمزوا فحسبت رماحهم ألسنة الشعراء وغيرهم عن المديح .
- ديوان معد بن يكر، ص 73 .

- 31- إنه ما فينا سيد أو زعيم مات حتف أنفه، أي مات على فراشه، بل مات في المعارك وتحت ظلال السيوف، ولا فينا أحد ذهب دمه هدراً ولم يُثار له.
- شرح ديوان الحماسة، ص 91 .
- 32- ذماؤه: بقية الروح .
- 33- الحوباء: النفس .
- 34- المجازات النبوية، الشريف الرضي، ص 41 .
- 35- الحباء: بيت من وير أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة.
- 36- معناه أن الرئيس إذا قُتل جعل رأسه على سنان، يعني أن العيش والحياة إذا كان هكذا فهو الموت.
- الأصمعيات، ص 146 .
- 37- مُجَّد مُجَّد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة لسان العرب، مصر، الطبعة الأولى، عام 2012م، ص 315 .
- 38- باحريُّ الدم: خالص الحمرة، هرَّ: كثر وكشف أنيابه . (ديوان المثقب العبدى، ص 70) .
- 39- المجتة: الكلب، الخبلُّ: جنون وفساد العقل . (ملحق ديوان المتلمس، ص 309) .
- 40- بُناة: باني القصور والمنشآت العمرانية: مشيدها، أي الذي بناها وأقامها. بُناة الوطن. أساة: الجراح، الطبيب .
- شرح ديوان الحماسة، ج 2، ص 205 .
- 41- المترز: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .
- أبو مُجَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعاني الكبير في أبيات المعاني، تحقيق: المستشرق د. سالم الكرنكوي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، عام 1405هـ، ص 930 .
- 42- حواسراً: امرأة مكشوفة الرأس والذراعين . (شرح ديوان الحماسة، ص 702) .
- 43- الإمام: الزيارة الخفيفة وفي البيت كناية عن حصول الخمر عنده بالفعل. اللاي: البطء والمعنى أنه فاز بأخذ الثأر بعد بطء ومدة طويلة فصارت الخمر حلالاً له بعد أن حرّمها على نفسه جرياً على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس من الجماع قبل أخذ الثأر .
- 44- سواد مرخم سواده، والخلُّ: المهزول، والمعنى: اسقني الخمر الآن فإن جسمي قد هزل بعد خالي . (شرح ديوان الحماسة، ص 593).
- 45- واغل: الداخلة على طعام القوم وشراهم من غير دعوة. وكنت امرأ عن شربها أي وكنت إمرأ مشغولاً عن شربها.
- معنى البيت: اليوم أشرب الخمر حال كوني غير مرتكب ذنباً من الله حيث بررت قسمي، ولا داخل على الشاربين بغير دعوة .
- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، عام 1425هـ، ص 142.
- 46- أبات: رميت بسهم، زاح الوهل: زال الهم والحزن. لقيت بنو ثعلب المرقيش الأكبر ومعه ابن عمه ثعلبة بن عمرو فقتلوا ثعلبة، واقسم المرقيش ألا يغسل رأسه حتى يقتل به، فلقي رجلاً من بني ثعلب فقتله .

- ديوان المرقشي (المرقش الأكبر و المرقش الأصغر)، تحقيق: كارين صادر، دار النشر دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، عام 1998م، ص 78 .
- ⁴⁷ - كانت العرب تقول: إذا قتل قتيل فلم يدرك الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة وهي الهامة والذكر الصدى فيصيح على قبره: اسقوني اسقوني: فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه .
- معنى البيت: أخافت الصحراء الموحشة المثقب العبدى بأهوالها وفقرها ومناداة صداها اليوم آخر الليل .
- ديوان المثقب العبدى، ص 38 .
- ⁴⁸ . ديوان عمرو بن قميئة، ص 600 .
- ⁴⁹ - أنماط: ثوب من الصوف يطرح على الهودج. الأحداج: الهودج، رقم: كل ثوب يُرقم، أي وُثِي برقم معلوم حتى صار علماً. الشقر: لون بين الذهبي والأحمر .
- ديوان المثقب العبدى، ص 5 .
- ⁵⁰ - أهل القباب الحمر: أصحاب قُبب حمراء (السادة) النَّعم: الإبل. المؤبل: الإبل السمان. المدامة: الخمر .
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: حسين نصار، شركة ومطبعة البابي الحلبي، مصر، 1957م، ص 34 .
- ⁵¹ - دار الحفاظ: التي لا يقيم فيها إلا من حافظ على حسبه وصبر على ما يصبر عليه، وذلك أنه لا يحافظ على حسبه إلا الشريف، يظعن: يرحل. الأمرع: الموضوع أكثر مراعاة وخصباً . شرح ديوان الحماسة، ص 53 .
- ⁵² - أذهل: أغفل وأنسى، المذمة: اللوم الذي يلام عليه . (شرح ديوان الحماسة، ص 52) .
- ⁵³ - الفتاك: شديد الفتك أي رجل شجاع.
- معنى البيت: أنه إذا عزم على أمر مضى عليه وإذا أتى أمراً أتاه غير خائف منه وذلك لشجاعته .
- شرح ديوان الحماسة، ص 55 .
- ⁵⁴ - جَسُوٌّ: شجاع لا يَخَوْفُ عند ما يعزم. إتقاء: الخوف من العواقب . (شرح ديوان الحماسة، ص 55) .
- ⁵⁵ - ركض: ضرب برجل، سيئد: الذئب. عمّرد: الطويل من كل شيء. شبه الشاعر فرسه بالذئب في السرعة. الفلثة: آخر ليلة من الشهر القمري الذي بعده الشهر الحرام . (الأصمعيات، ص 109) .